



مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2352-9849 EISSN: 2602-6929
المجلد رقم 12 العدد 03 / ديسمبر 2021
ص ص: 22-12



أي دور للجامعة الجزائرية في ظل محيط اجتماعي واقتصادي متأزم؟
العنوان باللغة الإنجليزية

**Any role for the Algerian University in light of a crisis social and
economic environment?**

د. غراز الطاهر*

قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيجل

تاريخ التقييم: 10-11-2020

تاريخ الإرسال: 08-11-2018

تاريخ: القبول: 19-04-2020

المخلص:

Abstract:

Although the university is the incubator and producer of knowledge and the standard of progress of any society, but they interact with the social environment with its economic, political and cultural variables, that is, the knowledge takes a marketing concept between the university and the society . The relationship and the extent of the need for the outputs of the university are determined according to the policies of the composition and scientific research and the nature of the institutions of society and how to make decision. The aim of this article is to attempt to uncover the status of the Algerian University in light of a number of social and economic changes that the society has known, and to clarify the most prominent reforms that have been made since the independence of the national state to the present time. In the context of this detail, during the identification of elements of the relationship between the university and the community or the university in its economic environment. In the end we have finished to identify the most important problems of the university and the obstacles to scientific research in Algeria.

Keywords: Algerian university, reform of higher education, social environment, economic environment, social changes, problems of scientific research.

رغم أن الجامعة هي حاضنة ومنتجة للمعرفة ومعيار تقدم ورقي أي مجتمع، إلا أنها تتفاعل مع محيطها الاجتماعي بما ينطوي عليه من متغيرات اقتصادية وسياسية وثقافية، أي أن المعرفة تأخذ مفهوما تسويقيا بين من يعرضها (الجامعة) ومن يطلبها (المجتمع) إذ أن طبيعة هذه العلاقة ومدى الحاجة إلى مخرجات الجامعة يتحدد وفقا لسياسات التكوين والبحث العلمي وطبيعة مؤسسات المجتمع وكيفية صناعة القرار. وتأسيسا على ذلك نهدف من وراء هذه المداخلة إلى محاولة الكشف عن وضع الجامعة الجزائرية في ظل عدد من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، التي عرفها المجتمع، مروراً بتوضيح أبرز الإصلاحات التي عرفتها منذ استقلال الدولة الوطنية إلى الوقت الراهن، وفي سياق هذا التفصيل حاولنا تفكيك عنصري المحيط من خلال تحديد عناصر العلاقة سواء بين الجامعة والمجتمع أو الجامعة بمحيطها الاقتصادي. في الأخير انتهينا إلى حصر وتحديد أهم مشاكل الجامعة وعوائق البحث العلمي بالجزائر.

الكلمات المفتاحية: الجامعة الجزائرية، إصلاح التعليم العالي، المحيط الاجتماعي، المحيط الاقتصادي، التغيرات الاجتماعية، مشاكل البحث العلمي.

مقدمة

الجامعة حقل أساسي في إنتاج الرأسمال المعرفي للمجتمعات، وهي البنية الأساسية والمهمة في أي نسق مجتمعي كان، للدور المنوط بها كفاعل ينتج شروط التحول والتغير المعرفي- السلوكي والقيمي، المادي والمجتمعي بصفة عامة، غير أنه يمثل ما يمكن للجامعة أن تؤثر إيجابيا في هذا النسق، فإن لهذا الأخير دور مؤثر أيضا إيجابيا أو سلبيا، وفي الأزمة المجتمعية والتنموية اليوم ببلادنا ما يعكس جزءا هاما من واقع هذه المؤسسة الجامعة كمؤسسة بدورها تعرف هذا التأزم.

وتأسيسا على ما سبق، يأتي هذا العمل للبحث في علاقة الجامعة الجزائرية بمحيطها السوسيو-اقتصادي، حيث سنحاول بشكل من المقاربة السوسولوجية الكشف واقع حالها، ولأدوارها الحاصلة والممكنة، مع تحديد لموقعها من خريطة التنمية والتغيير في محيطها اليوم سواء منه المؤسساتي أو المجتمعي العام؟.

1- إشكالية العلاقة بين الجامعة والمحيط:

مما لا جدال فيه أن الجامعة قد أصبحت، في المجتمع الحديث والمعاصر، من أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية، نظرا لما أنيط بها من مهام تربوية وعلمية وسياسية واقتصادية متعددة... يتمثل بعضها في تكوين وتأهيل العنصر أو الرأسمال البشري علميا ومهنيا وفكريا وسياسيا، ممونة بذلك مختلف القطاعات الإنتاجية والمجالات المتعددة في المجتمع بما تحتاجه من قوى بشرية مؤهلة للإسهام في مشاريع التنمية الاجتماعية الشاملة.

وانطلاقا من هذه الأهمية المركزية للجامعة، فقد أمست موضوعا للكثير من الأطروحات والدراسات المختلفة في أطرها المرجعية وإحالاتها التخصصية. وذلك من أجل مقارنة وفهم هذه المؤسسة: فكرة ودورا و ثقافة وآليات اشتغال... ونورد هنا هذه الملاحظة لنؤكد على مسألة جوهرية ألا وهي أننا لا نرمي، ضمن هذا المقال، إلى أن نلم بكل ما تتطلبه الدراسة المفصلة للجامعة، حتى ولو كان ذلك في إطار منظور تخصصي معين، كالمنظور السوسولوجي الذي نعتمد في مقاربتنا هذه خلفية للبحث والتحليل. إن ما نرمي إليه هنا هو، بالتحديد، تقديم بعض الملاحظات أو العناصر الأولية، حول " دور الفضاء الجامعي"، بالمفهوم السوسولوجي الشامل للموضوع، بما يحتويه من قيم ومعايير وعادات وأعراف وتقاليده وقوانين وتصورات واتجاهات ورؤى للعالم... أي كل ما يقوم عليه نمط عيش جماعة أو مجتمع ما محدود في الزمان والمكان.

وتأسيسا على المنظور السوسولوجي المنوه به آنفا، فإن المقاربة العلمية للمؤسسة الجامعية، فكرة ودورا وتحولات بنيوية واجتماعية، تستلزم، ضرورة، ربط هذه المؤسسة بسياقها السوسيو حضاري الخاص من جهة، وربطها من جهة أخرى، بسياق كوني أضحت فيه الجامعة، بامتياز، مؤسسة اجتماعية مركزية علميا واجتماعيا وسياسيا... هذا السياق الكوني الذي غالبا ما يؤكد الخطاب التربوي - ولا سيما الرسمي منه - على أنه يتخذ منه مرجعية موجهة لتحديد أهداف ومهام ووظائف الجامعة في مجتمعاتنا العربية، كما هي حال الجزائر خاصة، وهكذا، فإن ما أصبح يعرف عندنا بأزمة الجامعة- رغم ما يمكن أن يطرح من تحفظات على استعمال مفهوم الأزمة - مسألة لا يمكن فهمها، بالعمق الكافي، إلا في إطار ربطها، من جهة، بأزمة بنيوية يعيشها النظام التربوي - التكويني في الجزائر حاليا. وربطها، من جهة ثانية أيضا، بشروط نظام مجتمعي شمولي مخترق بالعديد من عناصر ومظاهر التأزم والتفكك، على أصعدة ومستويات مختلفة ومتعددة، مما أدى، في جل مجتمعات العالم الثالث، إلى فشل الكثير من محاولات التنمية والتحديث.

وعليه يمكننا أن نتساءل عن تأثيرات المحيط الداخلي والخارجي في توجيه دور الجامعة اليوم، خصوصا في ظل محاولة لعلامة المعرفة والتعليم الجامعي بما يواكب الشروط المجتمعية العالمية بصفة عامة، من جهة أخرى نتساءل ضمن حيثيات هذا العمل عن الكيفيات التي يمكن بها للجامعة الجزائرية اليوم أن تؤدي دور المؤثر في تغيير محيطها المجتمعي العام، والخروج من موقع المؤثر فيه من الجو السياسي والاجتماعي المتأزم المحيط بها، والذي كان من نتائجه استمرار أزمة الجامعة الجزائرية في تفاعلها مع المحيط الداخلي، ونزيف لكوادرها نحو مجتمعات خارجية.

بشكل دقيق مقارنة واقع الجامعة الجزائرية وعلاقتها بمحيطها اليوم يدفعنا للبحث أولا في بنية وعي الجامعة بمحيطها وإمكانات تأثيرها في صناعة وتنمية هذه النظم المحيطة بها وتغييرها نحو الأحسن، من ناحية أخرى سنبحث في عنصر

التواصل بين الجامعة والمحيط المجتمعي (السوسيو اقتصادي) فالتواصل جزء من هذه الأزمة، وإذا كان ذلك، سنحاول تقديم كيفية تجاوز هذه الأزمة مع تحديد للنمط الممكن في العلاقة الايجابية بين الجامعة وحاجيات محيطها المجتمعي ببنياته المختلفة.

2- أهمية الجامعة وتفاعلها مع المحيط المجتمعي:

"الجامعة كانت ولا تزال مصدرا للمعرفة الإبداعية، فهي أهم المؤسسات الاجتماعية، والأداة الأساسية في أي استثمار فاعل في الموارد البشرية، التي يمكنها أن تقود البلاد مستقبلا إلى التغير الإيجابي لمواكبة العصر وتكنولوجياته"¹، ومن هذا تتعاطم اليوم أهمية الجامعة وأدورها في كل المجتمعات، والجزائر في هذا السياق بذلت جهودا منذ الاستقلال للربط بين الجامعة ومحيطها نظير ما تمثله من قاطرة لأي تحول ايجابي نحو التنمية المستدامة والتقدم في جميع المجالات، ولأجل ذلك وحتى تصبح الجامعة منتجة، عليها أن تربط بين البحث العلمي في إطارها وخدمة المجتمع الذي تنتمي إليه، وتؤمن لنفسها قدرا من الحرية الأكاديمية بما يمكنها من تنفيذ أهدافها، "فالجامعة المنتجة هي التي تنتج المعارف من خلال البحث العلمي وتطبقها في المجتمع ومن هنا فإن جامعتنا مطالبة بتحويل وحداتها الأكاديمية إلى وحدات إنتاجية"²

في هذا السياق كان الاستحداث التاريخي لمؤسسة الجامعة لتقود قاطرة الإبداع والتنمية في المجتمعات الإنسانية، "ومع الزمن تعاطم دورها في خدمة المجتمع، ليتعدى نشر المعرفة خارج جدران الجامعة إلى إحداث تغييرات سلوكية وتنموية في البيئة المحيطة بالجامعة ووحدتها الإنتاجية والاجتماعية المختلفة"³

في بلادنا لا يمكن تحقيق هذه التطلعات والتأثير الإيجابي للجامعة في محيطها إلا عبر تطوير التعليم بعمومه، ولأجل ذلك سنتطرق في العنصر اللاحق إلى وضع ومحل الجامعة من التغيرات الحاصلة بالمجتمع الجزائري.

3- الجامعة الجزائرية في ظل التغيرات الاجتماعية:

هناك علاقة نسقية بين الجامعة والتغير، فهذه المؤسسة بقدر ما أسست لتؤثر في مجرى الأحداث والتطورات وتصنع التقدم والإبداع، فإنها بدورها أصبحت تتلقى التأثير، في ظل ما يحيط بها من تغيرات، عرفها ويعرفها المجتمع الجزائري منذ الاستقلال وبالخصوص مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات حيث عرف تغيرات عميقة حسب (GUERID. D,) خصت جميع المستويات "وكان أهمها ذلك الذي مسّ المستويين السياسي والاقتصادي، بانتقال من الأحادية الحزبية إلى التعددية السياسية وكذا إعادة هيكلة الاقتصاد الجزائري ومراجعة أساليبه في إطار التوجه الذي كان يسير بخطى نحو اقتصاد السوق، كل هذا فرض على الجامعة الجزائرية تحديات جديدة، وأدى إلى ضرورة تفعيلها بما يواكب التغيرات المحيطة."⁴

بالعودة إلى التغيرات فمن المعلوم أن الجزائر عرفت منذ السبعينات إلى اليوم تحولات مست جميع المستويات والأنساق وبوتيرة سريعة ومكثفة وكان أهم ذلك هو التحول الذي مسّ التصنيع، التعمير، الديمغرافيا والحجم السكاني، وكذا ارتفاع نسب التمدن وعدد المتدربين وفي جميع الأطوار...، كل هذا أفرز بدوره إشكاليات خطيرة وخلق اختلالات واضطرابات عديدة عرفتها مختلف الأصعدة والقطاعات الأخرى، ما استدعى حينذاك إلى تفعيل دور الجامعة في حل هذه الإشكالات.

هذا الأمر كشف أن المجتمع الجزائري كان ولا يزال غير مهيا بعد لمواجهة مثل هذه الهزات السريعة والارتدادية، ورغم توظيف التجارب العالمية مع القيام بعدد من الإصلاحات التنموية وفي مختلف القطاعات السيادية ومنها التعليم خصوصا، "إلا أن الجزائر فشلت فشلا ذريعا في تطبيق ذلك، فبعد سياسة حرق المراحل اصطدمت السياسات المنتهجة بظروف تاريخية وحضارية وقيمية مختلفة"⁵ جعلت المجتمع الجزائري بعقليته وقيمه هذه غير متقبل لنماذجها في التطبيق، كل هذا أنتج فشلا آخر عمّ عديد المؤسسات الصناعية والاقتصادية المختلفة وكّرّس إخفاقها المطرد نتيجة استيراد نماذج جاهزة من مجتمعات أخرى، كما اتسع نطاق هذا التأزم ليمس سياسة الأسرة وكذا المنظومة التربوية والتعليمية سواء منها في الأطوار الثلاثة الأولى أو حتى في الجامعة، التي أصبحت بؤرة ومجال للتأثر بدل التأثير، بعدما أفرغتها سياسات التهديم من الداخل والخارج منذ الاستقلال، كل هذا كان نتيجة منطقية للسياسات التنموية الارتجالية وغير المخططة، التي تتخبط في وُحْلِها جميع قطاعات المجتمع ومنها الجامعة الجزائرية.

إذن، إذا كان الفشل في التنمية المنتهجة والتي لم تستطع مواكبة التغيرات المطردة والسريعة التي مست جميع المستويات، يتحمل جزئه الهام الفاعل السياسي الذي يدير آلياتها، فإن الجامعة بدورها تتحمل جزءا من هذا الإخفاء والفشل، ومعه إن تحقيق تنمية فاعلة ومستدامة بالجزائر يتطلب ضرورة تغليب البحث العلمي في كل النشاطات الممكنة للتقدم.

4- إصلاح التعليم العالي بالجزائر:

كروولوجية الإصلاح تبدأ مع لحظة الاستقلال، "فبعدها ورثت الجزائر وضعها كارثيا في مجال التعليم، حيث الأمية كانت مستفحلة بين أبناء الفئة الغالبة من الشعب، عملت على تجاوز ذلك حيث اتجهت السلطة إلى التأسيس لعديد المؤسسات وفي مختلف الأطوار، أملا في الخروج من هذا الوضع المتأزم، وكان أن استحدثت منظومة جامعية جزائرية حاولت بها تخليص المجتمع من آثار المنظومة الكولونيالية، ومحاولتها مواكبة طموحات وتحولات هذا المجتمع"⁶

بالنسبة للبداية الفعلية للإصلاح فقد بدأ بشكل تقريبي مع نهاية الستينيات وبداية السبعينات وبالضبط سنة 1971، "حيث اتخذت السلطة حينذاك حزمة إصلاحات هيكلية وبيداغوجية، أملا في مواكبة التحولات التي كانت تعرفها الجزائر من خلال الثورات الثلاث، التي أطلقتها وتلخصت في الثورة الصناعية والزراعية والثقافية، وتلبية حاجياتها"⁷، وقد استند هذا الإصلاح على عدد من المحاور الأساسية منها:

ديمقراطية التعليم العالي، "والذي سمح بتطور كمي كبير على مستوى أرقام الطلبة، وكذا المراكز وعدد الجامعات بمختلف المدن الجزائرية"⁸، "وجزارة الهياكل والمناهج والإطار من خلال محاولة إخراج الجامعة من عزلتها وتجديد هياكلها، لربطها بمحيطها"⁹ "والتوجه نحو التعليم التقني والتطبيقي وذلك لأجل سد حاجيات البلاد"¹⁰ "وتدعيم عملية التنمية الجارية في البلاد، وأخيرا التعريب"¹¹ الذي رغم نجاحه في العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب، "فإنه فشل في العلوم التكنولوجية"¹² وهو ما خلف انقسامًا حادًا في فلسفة هذه العلوم وبيداغوجية أصحابها (الاتجاه الإنساني والاتجاه التكنوقراطي)، حيث انعكست صراعاتها على بقية القطاعات وحتى المجتمع.

عموما إن ما يعاب على الإصلاحات خلال هذه الفترة أنها كانت مرحلية ولم تكن بالمستوى الذي كان مطلوبا، "حيث أصبحت الجامعة تسير فقط الأعداد الضخمة للطلبة الملتحقين بها، وتستجيب فقط للمشاكل الظرفية بدون تفكير في وضع سياسة جامعية موضوعية وبعيدة المدى"¹³

بعد تقييم نتائج هذه الإصلاحات، اعترف القائلون على هذا الإصلاح بفشلهم في تجسيد حيثياته في الميدان، وانتهى هؤلاء إلى ضرورة تطهير الوضعية التي كانت عليها الجامعة في هذه الفترة وذلك بالرجوع إلى المقاييس العالمية في تنظيم مؤسسات التعليم العالي، وإرجاع الجوانب العلمية والبيداغوجية للتعليم إلى صلب المسعى، وإعطاء للتخصصات الأساسية دورا مركزيا في ظل إستراتيجية سليمة لتطوير الجامعة.

خلال فترة نهاية السبعينات حتى بداية الثمانينات لم تعرف أي تطورات إصلاحية في التعليم العالي، إلا أن سنة 1983 وحدها عرفت ظهور مشروع الخريطة الجامعية، التي هدفت إلى تخطيط التعليم العالي إلى أفق 2000، اعتمادا على احتياجات الاقتصاد الوطني وقطاعاته المختلفة، "وذلك بمراعاة اللامركزية في التكوين، تحقيق التوازن الجهوي، والقضاء على الفوارق وتحريك الاقتصاد، على الرغم من هذه الأهداف إلا أنها لم تنفذ إلى الواقع في جميع الأطر الجامعية في علاقتها بسوق العمل نظرا لعدم توفر مناصب العمل حينذاك"¹⁴ خصوصا مع التأزم الأمني والاقتصادي والسياسي الذي عرفته البلاد بداية التسعينيات، وكذا رغم محاولات الإصلاح التي شاهدها هذه الفترة.

استمر بعد ذلك نسق الإصلاحات الجامعية مع نهاية الثمانينات، وعلى الرغم من التطور الهيكلي للمؤسسات الجامعية كميا، إلا أن ذلك لم يصاحب بارتفاع نوعي في المعارف والإبداع والبحث بالجامعة الجزائرية، أكثر من ذلك استمر انفصامها الداخلي والخارجي، ولم تجد آليات للنفاذ إلى المحيط، وأمام ذلك عادت الدولة إلى نسق الإصلاحات الهيكلية والبيداغوجية ابتداء من سنة 1989 وذلك من خلال مشروع استقلالية الجامعة.

استمر الحال إلى نهاية التسعينيات وبالضبط سنة 1998، حيث شرعت السلطة في إصلاحات جديدة مست الجوانب الهيكلية خصوصا من خلال الانتقال من نظام المعاهد إلى الكليات، أما فيما يخص الجانب البيداغوجي فقد أدخل نظام جديد للتعليم الجامعي وهو نظام (LMD) "ابتداء من السنة الجامعية 2004-2005 بمقتضى مرسوم تنفيذي رقم 04-371

مؤرخ في 8 شوال عام 1425 الموافق لـ 21 نوفمبر 2004، والذي تضمن تقسيما وتنظيما للتعليم العالي على ثلاثة أطوار (ليسانس ثلاثة سنوات وماستر سنتين ودكتوراه ثلاثة سنوات) بدلا للنظام القديم الذي كان يدوم 12 سنة من التعليم" 15

تطبيق هذا النظام حسب القائمين على شؤون الجامعة الجزائرية جاء ليوفق بين متطلبات التنمية الاقتصادية للمجتمع الجزائري، وكذا تكوين الإطارات وإعدادها لمتطلبات سوق العمل وحاجيات المجتمع الأخرى، "هذا الادعاء يتصادم وحقيقة الضغوط الخارجية في تطبيق هذا النظام داخليا، فلا وضعنا ولا اقتصادنا بإمكانه التوافق مع مخرجات هذا النظام التعليمي" 16 وهو الأمر الذي فتح باب الانتقاد لوضع الجامعة الجزائرية التي تعاني من الركود ومشاكل في الهيكلة والتأطير وغير ذلك من الصعوبات، "ما يجعلها غير مهيأة لتطبيق هذا النظام" 17

5- علاقة الجامعة الجزائرية بالمجتمع:

في الجزائر تطرح علاقة الجامعة بالمجتمع من منظور مختلف بعض الشيء حتى وإن لا يمكن القطع تماما مع دورها في اقتصاد البلاد بعد الاستقلال، ولكن نتيجة للظروف التي تأسست في خضمها هذه الجامعة وما يحيط بها، كل هذا كبح جهودها وأفرغها من أدورها التي كانت ستكون مهمة في نقل المجتمع الجزائري إلى مصاف التطور.

إذن المدلول لهذه العلاقة كان سيكون عميقا لو تركت وتمكنت الجامعة من التأثير في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري في كل ما يخص مشاكله ومطامحه وتوجيهه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فالجامعة كانت دوما مؤسسة للتكوين، تتلقى أهدافها من المجتمع الذي يمدّها بالمدلول الواقعي، وفي الحالة الجزائرية المختلف كان تضاربا بين التصورات التنموية للسلطة والجامعة التي كانت لها نظرياتها الخاصة، وهنا طرحت أزمة العلاقة بين الجامعة والسلطة ومن ثمة المجتمع.

في هذا السياق وفي إطار الانفصال بين أبحاث الجامعة والمشروعات التي تبنتها الدولة لتطوير المجتمع ومنها تطوير الأرياف وتحسين مستوى الحياة بها، "لم تهتم السلطة السياسية حينذاك مثلا، لتطبيق العلوم البيولوجية وعلوم الفيزياء لحل مشاكل الزراعة" 18 خصوصا أن المجتمع الجزائري كان ذا غالبية ريفية تمتعها الزراعة في نشاطاتها الاقتصادية ولكن للأسف أن البحث العلمي في هذه المجالات على بساطته لم يجد المنفذ للتطبيق.

يضاف إلى ذلك أن الجامعة الجزائرية معزولة في كثير من نشاطاتها عن المجتمع وأحواله وحاجياته، وعوض أن تكون قاطرة له ومؤثرة بشكل إيجابي فيه وفي طرائق تنميته وتطويره، ها هو المجتمع الجزائري يؤثر في الجامعة وللأسف بسلبياته ومشاكله وأزماته التي انتقلت إليها وجعلتها مجرد هيكل مادي واجتماعي يجمع بين جدران فئات اجتماعية غير مخطط لها في تعليمها وتخريجها مع محيطها الخارجي.

إذن، في الجزائر وبكل موضوعية تعرف الجامعة، "قطيعة مع القطاعات الاجتماعية والاقتصادية المحيطة بها، كما أن النظام الجامعي في حد ذاته لا يزال متحجرا ثقافيا، نظرا لوجود نمط واحد من الجامعات الناتج عن عملية التسوية المطلقة بين جميع الهياكل الإدارية والتربوية التابعة لمؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي، "مما أدى إلى ظهور نمط واحد من التنظيم الإداري والتربوي، يهدف إلى التكوين عن طريق التعليم والتلقين والتقويم بالمراقبة المستمرة المفقدة للمرونة والتوزيع في أشكال العمل الجامعي". 19

هذا أثر على نوع الشهادة التي يتخرجون بها، وخلق مفارقة واضحة بين ما تزعم الجامعة القيام به وبين ما هي عليه في الواقع، ولذلك أصبحت الجامعة الجزائرية غير متوازنة مع محيطها الاجتماعي، ذلك أن تثمين دورها ومنتوجاتها - المعرفة والكفاءات التي يحملها خريجو الجامعات- لا تحظى بالاعتراف الاجتماعي، خصوصا في ظل عدم فعاليتها وقدرتها على تحقيق منفعة عملية مجسدة على مستوى سيطرتها على المشكلات المجتمعية التي يتخبط فيها المجتمع الجزائري، "فإذا أمعنا النظر في مخرجات ونوعية المنتج، الذي تقدمه الجامعة ندرك أسباب اللاتوازن مع الحاجيات والطلب الاجتماعي". 20 ما يكرس الاتجاه نحو غياب كل تصور متكامل لنظام التعليم العالي والجامعة وفق مشروع مجتمعي مستقبلي شمولي.

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أن ما يميز علاقة الجامعة بالمجتمع في الجزائر هو طغيان الشرعية الثورية مقابل الشرعية العلمية التي دعي إليها ماكس فيبر فهو الصراع بين الإيديولوجية و العقلانية العلمية. بين الطبقة السياسية في السلطة و الطبقة المثقفة في الجامعة. الرأس المال السياسي مقابل الرأس المال الثقافي و اليوم يضاف إليهما الرأس المال الاقتصادي.

و مشروع الجامعات الخاصة.

لماذا تنشأ الجامعات لتهمش ؟ النظام الريعي لا يحتاج إلى الفعالية و الجودة التي تفرض نفسها في السوق التنافسية فهو لا يكثرث بالعنصر البشري (المادة الرمادية) و لا يؤمن بالعلم كأسلوب لحل مشاكله .

6- علاقة الجامعة بالمحيط الاقتصادي :

إن البحث عن دور التعليم العالي والبحث العلمي في تحقيق النمو الاقتصادي في الجزائر، غير واضح وملتبس إن لم نقل منعدم، "فمن خلال البيانات المتوفرة عن معدلات النمو الاقتصادي في الجزائر والتي سجلت 2.5% في المتوسط خلال الفترة الممتدة من (1962 إلى 1984) و 1,2% للفترة (1985-1998) وحوالي 4% للفترة الممتدة بين (1999-2007)".²¹ ، ونفس النسبة تقريبا للفترة الممتدة بين (2008-2016)، ندرك تماما بمجال لا يدعو للشك أن الأداء الاقتصادي في الجزائر مرتبط وإلى حد كبير بالريع البترولي، استحوذ مداخله على 95% إلى 98% من الإيرادات الخارجية للجزائر من العملة الصعبة.

في المقابل لهذا لا يتضح حجم الأداء الجامعي ومستواه وتأثيره في هذا النمو الاقتصادي، فرغم آلاف المتخرجين في مقابل آلاف الأساتذة والباحثين، تبقى الجامعة مجرد بناء هيكلي غير مؤثر في المحيط الاقتصادي الذي يحيط به، بل إنه رغم كل الإصلاحات مازال المشكل يطرح بحدة في عدم تكيف الجامعة ومن خلالها التعليم العالي مع المحيط الاقتصادي وسوق العمل خصوصا، "الذي يعتبر مؤشر من مؤشرات النمو الاقتصادي أو انخفاضه، فلا توجد إلى اليوم علاقة واضحة بين الجامعة والمؤسسات، ولا تتحمل الدولة هذه المسؤولية، ويزيد مشكل الكفاءة ومخرجات الجامعة الوضع تأزما " ²²، خصوصا في ظل انفصال بين المتلقى النظري للمتخرجين والحاجيات التطبيقية للمؤسسات وللسوق العمل.

يضاف إلى هذا أن البحث العلمي الموجود في الجامعة الجزائرية لم يرق بعد إلى المستوى الذي يعطيها مكانة أفضل في مجتمعها وفي محيطها الاقتصادي، فرغم أنه يشكل محورا أساسيا في تطويرها إلا أنه لم يأخذ مكانته الحقيقية، يضاف إلى هذا الانفصال للجامعة الجزائري بمحيطها الاقتصادي تبنيها لإصلاحات غير نابعة من احتياجات المجتمع الجزائري واقتصاده، "والتي كانت نتاج إملاءات الدول الغربية والشراسة معها وفي إطار عولمة التعليم، والتي عكست وترجمت بوضوح في "تبعية المغلوب للغالب أو الأطراف بالمركز".²³

بالنسبة لعلاقة الجامعة بالتنمية الزراعية، تطرح هذه العلاقة من زاوية أن الجزائر بلد زراعي، وعلى ضالة ذلك فإنه يمثل النشاط الاقتصادي المهم، إلا أن نفس الأمر يطرح في علاقة الجامعة ومن خلالها التعليم العالي والبحث العلمي بالميدان الزراعي، فلا استفاد هذا الميدان من الخبرات والمعارف العلمية المكتسبة بالجامعة ولا قوة العمل في هذا الميدان من متخرجي الجامعة، فهذا الميدان عرف عزوف للجامعيين، الذين أغوتهم المكاتب المكيفة والعمل المأجور والمدينة، وهو ما ضيع على الجزائر إمكانيات ومعارف كان يمكنها أن تكون مؤثرة في تطور القطاع الزراعي.

الأمر نفسه ينطبق على المحيط الاقتصادي - الصناعي، الذي رغم الوثبة العملاقة التي قامت بها الدولة الوطنية فترة السبعينات من خلال ما عرف بالثورة الصناعية، إلا أنه للأسف لم يتعد حجم العلاقة وتأثيرها بين تعليم ومخرجات وأبحاث الجامعة الجزائرية أكثر من تشغيل المصانع وإدارتها ولم يتعدا إلى تصميم الصناعة وبناء المصانع وصيانتها وتطويرها بالإبداعات والابتكارات والتحكم التكنولوجي الذاتي لمسيرة الغير، "بل بقيت في تبعية مطلقة للأجنبي، إلى أن أغلقت أبوابها وفشل مشروع الثورة الصناعية وسرح العمال وعرضت للبيع، ومن بقي منها فقد أثقل كاهل الدولة ومثل عبئا ماليا لها".²⁴

أمام كل هذا تبرز إخفاقات الجامعة الجزائرية في التأثير والتفاعل مع محيطها السوسيو-اقتصادي، فبغض النظر عن بعض إيجابياتها ولا سيما الكمية منها، فإنها مؤسسة استهلاكية للبرامج والمناهج المنتجة بالغرب ولو بعد انتهاء صلاحية

ذلك عند منتجها، وهو ما جعلها تخفق في الاندماج وسط المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، وعوضا أن تكون مصدرا للتأثير في محيطها المجتمعي، أصبحت هي من يتلقى التأثير، "فانتقلت سلبيات البيروقراطية والقيم الاتكالية والاستهلاكية المفرطة ومظاهر الفساد المختلفة إلى الحرم الجامعي، ومعها تحولت مهمتها إلى توزيع الشهادات عوضا عن تكوين الخبرات والكفاءات التي نحن أحوج لها".²⁵ ، هذا الأمر أوصل الباحث الجزائري لياس ميري إلى نشر كتاب عنوانه بـ "هل يجب غلق الجامعة؟" ، "faut-il fermer l'université" ²⁶ هذا السؤال يعكس فعلا أزمة الجامعة الجزائرية.

7- مشاكل الجامعة والتعليم العالي والبحث العلمي بالجزائر:

رغم عدم نكراننا لإيجابيات التطور الكمي للجامعة الجزائرية، إلا أنه لا يخفى على أحد عديد المشاكل والأزمات التي تعترض سبيلها، من ذلك، مشاكل تتعلق بالتضخم المطرد لعدد الطلبة، ما أثر بدوره على قدرة استيعاب المنشآت القاعدية، وخلق الاكتظاظ وأضعف نوعية التأطير ونتائجه، وكذا مشاكل التسيير البيداغوجي، "إضافة إلى مشاكل أخرى تتعلق بالأستاذ، وكذا الطالب وذهنياته ومواقفه وجهوده الضعيفة في سبيل التعلم وتلقي المعرفة، بالإضافة إلى مشاكل التسيير الإداري والبيروقراطية المعيقة للبحث ولعلاقة الجامعة بمحيطها، والمشاكل المتعلقة بمخرجاتها ونوعية الشهادات المحصلة غير المسايمة لحاجات وتحولات المجتمع".²⁷

- كل هذا جعل الجامعة الجزائرية اليوم مجرد هيكل عالي لتجميع الطلبة لفترة من الزمن دون المعنى الحقيقي لإنتاج المعرفة، "وهو ما ساهم في اغترابها وأزمتها في المجتمع، وغيبها عن أدوارها ووظائفها الممكنة في تطوير محيطها الداخلي والمجتمعي العام".²⁸ ونتيجة لذلك دخلت الجامعة في نوع من القطيعة في العلاقة مع محيطها، "الأمر الذي جعلها حلقة فارغة متهمه بتخريج أفواج من العاطلين من أنصاف المتعلمين".²⁹
- ويزيد الأمر مأساوية عند الالتفاتة إلى الانجازات المتواضعة للجامعات الجزائرية في مجال البحث العلمي، وكذا المخصصات المالية الضعيفة له (خصص له 0,27% من إجمالي ناتج الجزائر منتصف الألفية الجديدة)، "إضافة إلى عدد الباحثين الضعيف (لم يزد عدد الباحثين الدائمين بالجزائر سنة 1996 عن 4000 باحث، وهو ما مثل 165 باحث لكل مليون جزائري، وهو رقم ضعيف مقارنة بالمعدل العالمي".³⁰ مروراً بالمشاكل المتعلقة بتدقيق المعارف، والتواصل مع العلم وحركة الترجمة، "وكل هذا يعكس وضعاً قائماً تعيشه الجامعة في ظل إرادة معوقة تحول دون المساعدة في إخراج الجامعة والبحث العلمي إلى مسار التنمية والتطوير".³¹

8- إستراتيجية الخروج من المأزق:

بداية يجب علينا أن ندرك أن أية استراتيجية ترمي إلى تحسين نوعية التعليم العالي وجودته، لابد أن تأخذ في النظر جميع العناصر: ماذا نعلم؟ وكيف نعلم؟ وما مردودية ما نعلم؟ وأية ثقافة تعليمية نعتد؟ كما ينبغي أن لا ننظر إلى التعليم العالي بوصفه قطاعاً معزولاً، وإنما بوصفه نظاماً فرعياً في نظام أكبر هو المجتمع الذي نعيش فيه والعالم الذي يحيط بنا.

إن أول الأعمال التي يجب أن تكون مفتاحاً للحل نحو ايجابية لعلاقة الجامعة بمحيطها هو أن تتوفر إرادة جماعية من طرف كل الفاعلين: السياسي والسلطوي أولاً ثم الجامعة وأطرها وباحثيها، وثالثاً الفاعلين في المحيط الاجتماعي والاقتصادي، وإلا فإن عدم توفر ذلك لن يؤدي بالجامعة إلى الانفتاح وإنتاج المعرفة وخدمة المجتمع.

ثانياً، إن القطاعين العام والخاص مطالبين بدعم الجامعة مادياً ومعنوياً وتوفير التمويل اللازم لبرامجها وللبحث العلمي الذي تضطلع به، وتمكينها من استقلالها الإداري وحريتها الأكاديمية، وفي مقابل ذلك يتوجب على الجامعة أن تعيد النظر في أهدافها بحيث تضع خدمة المجتمع في مقدمة أهدافها، وتعيد النظر في إدارتها بحيث تختار قيادتها وفقاً لمعايير مضبوطة، وتغير من هيكلها وأساليبها في ضوء التطورات العلمية والتقنية المتسارعة، وأن تسعى إلى شراكة حقيقية مع الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين خارج حرمها الجامعي لخدمتهم، والاستجابة إلى احتياجاتهم، وترقية مستواهم الثقافي والمهني، وزيادة مردوديتهم الاقتصادية عن طريق البحث العلمي والتدريب المستمر والترجمة والتأليف، "وأن تعمل على نشر المعرفة العلمية والتقنية وإشاعتها بين شرائح المجتمع المتنوعة باللغة الوطنية التي تفهمها الأغلبية الساحقة، وهكذا وحده يمكن للجامعة أن تقود عملية التنمية الشاملة".³² والمستديمة في الجزائر، وتؤثر بشكل إيجابي ودافع للتطور لمحيطها السوسيو اقتصادي والمجتمعي عموماً.

خاتمة:

علاقة الجامعة الجزائرية بمحيطها الاجتماعي والاقتصادي وعلى صورتها الحاصلة منذ الاستقلال إلى اليوم تعكسها وتلخصها تلك النمطية والارتجالية السياسية في صياغة برامج وإصلاحات الجامعة، فإذا سلمنا أن الدور الأساسي لهذه الجامعة يكمن في إعداد الإطارات اللازمة في جميع الميادين، وتنمية الأفكار بالبحث العلمي المتصل بالواقع حيث يساهم في مختلف نشاطات المجتمع بما يؤدي إلى التغيير المجتمعي من الأسوأ إلى الأحسن، فإنه في الجزائر نجد العكس، الكفاءات العلمية والتقنية الجزائرية غير مستغلة نظرا للأوضاع السائدة في جامعاتنا لسوء التسيير وانعدام الحريات الأكاديمية، حيث أنها لا تهتم بمتخرجيها ولا تعمل على ربط البرامج الأكاديمية بالتغيرات التكنولوجية والعلمية، وهذا ما يبقئها في الإطار التقليدي، وفي عزلة عن محيطها الاجتماعي والاقتصادي رغم أنه من المفروض أن يكون هناك اندماج بين إطاراتها والمجتمع.

إذن، جامعتنا لا تزال معزولة عن المجتمع، بل وتمارس فعل العزلة، الشيء الذي يجعلها عبارة عن هياكل وبناءات فارغة رغم أن العالم المعاصر يفرض عليها التفتح على المجتمع والمحيط بها وممارسة وظيفتها التطويرية والإبداعية والمعرفية، ورغم كل هذا الزمن الذي عاشته وتعيشه الجامعة الجزائرية فإنها لم تستفد من تجاربها والإصلاحات التي عرفتها، فتضخم الطلبة وكثرة الطلب الاجتماعي وكذا بطالة خريجي الجامعات لا يزال متواصلا، بل وبوتيرة أكبر، ما يحتم عليها اليوم أكثر من أي وقت مضى ضرورة حضورها عن طريق مخططات إعادة التنظيم وإعادة تعريف هياكلها وأهدافها انطلاقا من إعادة التنظيم المبرمج والموجه نحو المستقبل، لأن واقع جامعتنا حاليا يبرز النقائص التي تتعلق بدورها من أجل إخراج المعرفة من حيزها ونشرها في المحيط الخارجي مع تقليص المسافة بينهما من أجل إدماج الطالب في الحياة الوطنية، وهذا ما يحول دون إنتاج معرفة تجيب على القضايا الاجتماعية من خلال برامجها التكوينية، فهناك قطيعة بينها كمؤسسة اجتماعية وبين المجتمع الجزائري، تظهر من خلال وضعية الطالب الذي يجد نفسه بين مجالين متباينين "داخل الجامعة وخارجها"، "وكذا من خلال رؤية أفراد المجتمع لها باعتبارها مؤسسة غريبة عنهم وعن اهتماماتهم وتحولات المجتمع عموما".³³

ولهذا كله، تحتم الضرورة توجيه اهتمام المؤسسة الجامعية إلى ربط التكوين وفق طلب المجتمع في مختلف التخصصات والتكيف مع التحولات والتغيرات الاجتماعية في الجزائر من أجل الوصول إلى جامعة فعالة تتماشى ومتطلبات المجتمع الجزائري، فتصبح بذلك مرجعا لحل مشاكله ومساهما فعالا في تغييره نحو الأحسن.

- 1- حماش، بلحسين. *الجامعة في ظل التحولات العالمية: دراسة ميدانية لتصورات الطلبة والمدرسين*، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 10، إصدار كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: جامعة الجزائر. 2008. ص ص 178-179.
- 2- أمينة، مساك، *التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة*، مداخلة مقدمة في إطار الملتقى الدولي الأول: الجامعة والنقابة بين التحولات والتطلعات: من تنظيم نقابة أساتذة التعليم العالي، الجزائر العاصمة، (غير منشورة)، يومي 26 و 27 ماي 2010. ص 03.
- 3- عبد الغاني تيايبي. *تصور مقترح لتطوير دور الجامعة في خدمة المجتمع في ضوء الاتجاهات العالمية الحديثة*، مداخلة مقدمة في إطار الملتقى الدولي الأول: الجامعة والنقابة بين التحولات والتطلعات: من تنظيم نقابة أساتذة التعليم العالي، الجزائر العاصمة، (غير منشورة)، يومي 26 و 27 ماي 2010. ص 05.
- 4- Djamel Guerid . « *l'Université entre Etat et Société* », l'Université aujourd'hui (actes de séminaire), coordination et présentation GUERID Djamel, ORAN.: Edition CRASC.1998.
- 5- أمينة، مساك. *التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة*، مرجع سابق، ص 05.
- 6- حسين تومي. *الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي*، من مجلة دراسات اجتماعية، العدد 05: إصدار مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، نشر وتوزيع الدار الخلدونية، القبة. 2012. ص 32.
- 7- Djamel Guerid . « *l'Université entre Etat et Société* », Op.cit., P26.
- 8- حسين تومي. *الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي*، مرجع سابق، ص 27.
- 9- محمد علي، ولد خليفة. *المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية*، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. 1989. ص ص 213-214.
- 10- Djamel Guerid . « *l'Université entre Etat et Société* », Op.cit., P11.
- 11- محمد علي، ولد خليفة. *المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية*، مرجع سابق، ص ص 220-222.
- 12- Hassan Remaoun, « *Université, Savoir et Société : le cas des disciplines sociales* », l'Université aujourd'hui (actes de séminaire), coordination et présentation GUERID Djamel, ORAN : Edition CRASC.1998.P53
- 13- حماش، بلحسين. *الجامعة في ظل التحولات العالمية*، مرجع سابق، ص 184.
- 14- صادق، الطيب. *الممارسة السوسيوولوجية في الجامعة الجزائرية*، واقعها وتمثلاتها لدى أساتذة علم الاجتماع، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير: (غير منشورة)، قسم علم اجتماع، جامعة قسنطينة. 1992. ص 51.
- 15- حماش، بلحسين. *الجامعة في ظل التحولات العالمية*، مرجع سابق، ص 202.
- 16- حسين تومي. *الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي*، مرجع سابق، ص ص 33-34.
- 17- حماش، بلحسين. *الجامعة في ظل التحولات العالمية*، مرجع سابق، ص 203.
- 18- أمينة، مساك. *التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة*، مرجع سابق، ص 09.
- 19- نفس المرجع، ص ص 9-10.
- 20- عنصر، العياشي. أي غد لعلم الاجتماع؟، من ندوة الجامعة اليوم، تنسيق وتقديم جمال غريد، وهران: منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC)، 1998. ص ص 12-13.
- 21- حسين تومي. *الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي*، مرجع سابق، ص 34.
- 22- أمينة، مساك. *التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة*، مرجع سابق، ص 18.
- 23- نفس المرجع، ص 19.
- 24- حسين تومي. *الجامعة وتنمية المجتمع في الجزائر بين النجاح الكمي والإخفاق الكيفي*، مرجع سابق، ص ص 36-37.
- 25- نفس المرجع، ص ص 37-38.
- 26- Liés Mairi., *faut-il fermer l'université*، Alger : ENAL.1994.
- 27- أمينة، مساك. *التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة*، مرجع سابق، ص 12.
- 28- جمال، معتوق. *قراءة نقدية لأزمة التعليم العالي بالجزائر*، دفاقر المخبر: الجامعة الجزائرية والتحديات الراهنة، منشورات مخبر *المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة*: جامعة خيضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثاني، بسكرة. 2006. ص 31.

- 29- علي، القاسمي. *الجامعة والتنمية*، السلسلة الشهرية المعرفة للجميع، الرباط: منشورات رمسيس. 1998. ص 60.
- 30- بوبكر حماني. *تأملات في الدنيا والدين*، منشورات مخبر الأبعاد القيمة للتحويلات السياسية والفكر بالجزائر، الجزائر: جامعة وهران، طبع بدار القدس العربي، ط1. 2012. ص 316.
- 31- علي سموك. *„إشكالية إنتاج المعرفة في المجتمع الجزائري ومحددات الفجوة الإستراتيجية في التنمية البشرية: من أجل مقاربة سوسيو اقتصادية“*، دفاثر المخبر: الجامعة الجزائرية والتحديات الراهنة، منشورات مخبر *„المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة“*، جامعة خيضر – بسكرة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثاني. 2006. ص ص 166-167.
- 32- علي، القاسمي. *الجامعة والتنمية*، السلسلة الشهرية المعرفة للجميع، الرباط: منشورات رمسيس. 1998. ص 64-65.
- 33- أمينة، مساك. *„التمثل الاجتماعي للجامعة الجزائرية في ظل العولمة“*، مرجع سابق، ص 20.